الثورة الجزائرية مشروع لم يكتمل:

قراءة في رواية «البطاقة السحرية» لمحمد ساري

بوشعيب الساوري*

■ محمد ساري واحد من النقاد الجزائريين الذين انتقلوا من ممارسة النقد الى تجريب الكتابة الروائية، على الرغم من مساهماته المتميزة في مجال الدراسات النقدية.

لكنه لم يخرج بدوره عن الطابع العام لهواجس الكتابة الروائية الجزائرية المكتوبة بالعربية التي صارت الثورة، سواء حرب التحرير خاصة وأطروحة الشهداء، الموضوع الأثير لدى أغلبها1. فظلت صورة الحرب والثورة هاجساً أساسياً يحرك عملية الكتابة أو هي تتحرك فيه2. وظلت الثورة «تلاحق كل الكتّاب، سواء من باب الحنين فالاستحضار فالوصف، أو من باب الحنين فالنقمة فالنقد». 3 دون أن ننسى انفتاح بعضها على الأزمة الجزائرية في العقد الأخير من القرن العشرين، ونخص بالذكر تجربة واسيني الأعرج.

واذا كان الحال ـ كما يقول عبد الرحمن منيف ـ هي أنّ الأجيال القادمة لا بد «أن تقرأ التاريخ الذي نعيشه الآن وغداً، ليس من كتب التاريخ المصقولة، وانما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة». 4 فان محمد ساري يحاول في روايته البطاقة السحرية5 كتابة تاريخ الجزائر المعاصر، اذ تؤرخ الرواية لحدث سياسي واجتماعي ممتد من زمن ما قبل الاستقلال الى ما بعده. وتتضمن مجموعة من الاحالات التاريخيّة والاجتماعيّة التي تحتضن مناخ الرواية مكاناً وزماناً.

1. وراثة الصراع

يتم تبئير الصراع بين شخصيتين أساسيتين مفارقتين في رواية «البطاقة السحرية»:

ـ مصطفى عمروش يتمتع بصفات مثالية: الشرف، النبل، الشجاعة، الروح الوطنية، التفاني في الاخلاص، الصدق، الذكاء. كان مجاهداً وساهم في حرب التحرير، يعيش حياة بسيطة قريبة من الفقر. مخلص للوطن ولزمن الثورة. لكنه ظل على الهامش ولم يحظ بما كانت تعد به الثورة.

ـ السارجان الخائن/ الحَرْكي يتميز بصفات قبيحة: الخداع، الخسة، الجبن، التعدي، الاغتصاب، الظلم، استغلال الآخرين. كان يعمل ضد المقاومة لصالح القوات الفرنسية. وحتى بعد أن ابتعد عن القوات الفرنسية كان يرفض بيع المواد الغذائية للمقاومين. لكنه بعد الثورة سيغتني وستصبح له أراض زراعية ومقهى وقصر الى جانب العديد من الامتيازات. رغم المال والثروة يريد أن يحسّن صورته في الماضي ابان الثورة وتغيير التاريخ وصنع تاريخ جديد، عبر الحصول على بطاقة المقاومة تلك البطاقة السحرية التي بامكانها أن تحوله من خائن الى مقاوم. يقول: «عرف أهل القرية أن السرجان طلب شهادة نضال في صفوف الثورة». (ص,16)

لقد كانت مواجهة عمروش للسارجان في البداية سلمية وانتهت بالتخلص منه بقتله، وهنا تتقاطع البطاقة السحرية مع رواية الحوات والقصر6 للطاهر وطار التي واجه فيها "علي الحوّات" القصر في البداية بشكل سلمي عاطفي ساذج ولكن التجربة ستشحذ وعيه ووعي الآخرين تدريجياً الى أن تتحد القرى وتتوصل الى هدم القصر والانتقام من المجرمين الذين ليسوا في نهاية الأمر سوى اخوته.

ينتقم عمروش لنفسه من أحد الطفيليين الذي حاول تشويه التاريخ وتزويره، عبر الحصول على بطاقة المقاومة في الوقت الذي كان يشتغل خائنا. يؤكد فعل عمروش أن المقاومة لم تنته بعد ضد الطفيليين والخونة الذين يحاولون تغيير التاريخ وتحريفه.

لقطة من فيلم «معركة الجزائر»

لتستمر الثورة قائمة الى زمن ما بعد الاستقلال ضد الخونة والمستعمرين الجدد المستفيدين من عدة امتيازات رغم خيانتهم قبل الاستقلال، مما يؤكد أن الثورة و«حرب التحرير لم تكن سوى مشروع لم يكتمل انجازه، وان الطرف المغيّب (بفتح الياء) ما يزال يمارس حضوره وهو المؤهل للقيام باتمام هذا الانجاز المستقبلي».7

تبين الرواية آثار الثورة على زمن ما بعد الاستقلال في العلاقات بين الناس. يقول السارد: «كان الرأي الغالب أن الثورة التحريرية انتهت من زمان، فالافضل الاهتمام بالمستقبل الاقتصادي للبلاد، ومحاولة الالتحاق بالركب الحضاري للغرب». (ص,81) مؤكداً أن الثورة لم تنته بعد، أي أن الناس لم يتجاوزوا زمن الثورة، وكأنها صرخة تقول بضرورة تجاوزه.

كانت مواجهة عمروش للسارجان فرصة للسارد ليقوم باسترجاعات تعود الى زمن الثورة، وتضيء كل شخصية وتقدم صورة عن أفعالها ابان الثورة المسلحة. لتجعل الصراع محكوما بالماضي، انطلاقا من الصراع حول حورية الذي أدى الى التحاقها بعمروش رفقة المجاهدين واستشهادها هناك بعد أن أنجب منها طفلا (جمال). ذلك الاستشهاد الذي كرس كراهية عمروش للسارجان الخائن. كما أن حورية هي التي كانت سببا في قتل عمروش للسارجان بعد أن حاول الأخير تشويه ماضيها أمام سكان القرية.

تجمع «البطاقة السحرية» بين الذاتي، قصة حب عمروش لحورية واخلاصه لها بعد وفاتها، وبين الوطني، حب الوطن والدفاع عنه في الماضي والحاضر والموت في سبيله ومقاومة أعدائه لأن الثورة لم تنته بعد. انها دعوة للصمود أمام الخونة ومواجهتهم، الى جانب التضحية في سبيل الحب والاخلاص له.

2. توريث الصراع

استمر الصراع بين عمروش والسارجان الى الأبناء (جمال بن عمروش وشفيقة بنت السارجان) انطلاقا من تحفيز كل واحد ابنه على منافسة ابن الآخر على مستوى الدراسة. يقول السارد: «أصبح السرجان بعد ذلك يعير اهتماماً مبالغاً بدورس ابنته ويستقصي أخبار جمال باستمرار، يحرض شفيقة على المذاكرة والحفظ كي تتفوق على الجميع بمن فيهم جمال عمروش». (ص,56) ذلك الصراع الذي أفضى الى قصة حب بين جمال وشفيقة. لكن ذلك الحب سيصطدم بفاجعة وهي قتل عمروش الوطني للسارجان الخائن.

تبرز الرواية المفارقة بين جيلين: الجيل الأول (السرجان وعمروش) يصعب عليه التعايش والنسيان اذ لم يتم الحسم مع الماضي، لم يدفن الماضي بلغة عبد الكريم غلاب. أما الجيل الثاني (شفيقة وجمال) فبإمكانه التعايش. يقول مصطفى عمروش مخاطبا ابنه جمال: «بعد كل هذا كيف تريدني أن أنسى أن أطوي الصفحة، أنتم جيل الاستقلال يمكنكم النسيان والعيش بدون ثقل الماضي». (ص,80) لكن الماضي تدخل وحدّ من كل امكان للتعايش بعد مقتل السارجان من قبل عمروش. ليعيش الجيل الثاني على مشاكل الجيل الأول. يقول السارد: «انهارت أحلام جمال وتبخرت كل المشاريع التي شيدها برفقة شفيقة، أيُعقل أن ترغب شفيقة في رؤيته بعد الذي حدث؟» (ص,81) ليجد نفسه ملزما بمعرفة تاريخ الثورة، بعد أن كان يجهل عنها كل شيء.

يقول السارد: «لم يهتم جمال بتاريخ الثورة، ولم يقرأ كتاباً واحداً عنها مهما كان صغيراً، كل ما يعرفه من أسماء وحوادث، التقطها سمعاً من هنا وهناك، دون أن يركز انتباهه في الالمام بتفاصيلها». (ص,81) فيجد نفسه مضطرا الى معرفة الثورة. كما يعده والده وهو بالسجن بأن يحكي له حكاية الثورة وحكاية صراع الجيل الأول في زيارة قادمة. اذ كان السجن فضاء ليبوح عمروش لابنه جمال بكل المشاعر التي كان يخفيها عنه من قبل، حول الثورة وحول والدته حورية، وحول شخصية السارجان الحركي الخائن.

3. توتر السرد

ليس هناك تدفق في السرد، وانما يقوم السارد بعدة تقطيعات سردية، قوامها الاستباق والتأجيل والتذكر والاستيهامات، كلها تعكس توتر نفسية الشخصية الرئيسية (عمروش) التي تتداخل لتتكامل في الانتهاء من قراءة الرواية. كل ذلك يمنح الرواية جاذبيتها. كما سمح بتعدد في المحكيات، واقعية/ متخيلة، ما قبل الثورة / ما بعدها، وطنية/ ذاتية، وكذا تراوح طريقة السرد بين ضمير الغائب وضمير المتكلم.

الملمح البارز للسرد في الرواية هو الاستيهام، اذ يتجاوز السارد الصراع المباشر بين عمروش والسارجان الى صراع نفسي عبر تسليط الضوء على نفسية الشخصية الروائية باستخدام المونولوج والتداعي والاستيهامات. يقول: «ساد الصمت بين الأب والابن، وانقاد كل واحد منهما خلف تأملاته، شارد الذهن يبحث عن التعبير اللائق المناسب في مثل هذا المقام». (ص81ـ82) وقد كانت تلك الاستيهامات أداة للمقاومة النفسية، التي سببتها أفعال السارجان وطموحاته الجارفة.

تمّ سرد جل أحداث الرواية بضمير الغائب، والذي يتميز بالحكي عن تجربة الماضي الوطنية والذاتية، الا الفصل السادس فتم سرده بضمير المتكلم (عمروش)، والذي يرصد فيه المفارقة بين حكايات العمة المتخيلة التي كانت منبعا «لا ينضب من الحكايات الشعبية» (ص 73) وبين حكايات الواقع، وبين حكايات الثورة ووعودها وخيبات الاستقلال، اذ حاول الكاتب أن ينقل بشكل مباشر التوتر النفسي الذي عاشه عمروش في اطار أدرمة صراعه النفسي.

كما حفل السرد بعدة محكيات تقوم باضاءة بعض الأحداث والشخصيات:

ـ محكي وطني (الثورة) المواجهة بمحاولة الالتحاق بالمجاهدين ومحكي ذاتي (حب حورية) وكيف امتزجا وانتصرا معا على الرغم من اكراهات المستعمر بالنسبة للأول واكراهات المجتمع بالنسبة للثاني، ومحاولة السارجان منع عمروش من حبيبته، بعد أن خطبها وكان سببا في فرارها والتحاقها بالمجاهدين وموتها، ليسلط الضوء على تجربة حب عمروش لحورية وكيف التحقت به في الجهاد وكيف تم الزواج. يقول: «كان العرس رائعاً، ذبحنا خروفاً وحضرنا الكسكسي والشربة وكدنا نطلق الرصاص احتفاء به». (ص,75)

ـ محكي ما بعد الثورة وهو حاضر الشخصيات، تطرح فيه مجموعة من الأسئلة حول نتائج الاستقلال، كما تطرح الرواية مشكلة الأسماء.

ـ محكي الجفاف الذي اجتاح الجزائر في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وهي الفترة التي تؤطر أحداث الرواية: «وعمّ جفاف لم يشهده البلد منذ أعوام، انتصف شهر جانفي ولم تستقبل الأرض الظمأى قطرة ماء واحدة، فلم يتمكن الفلاحون وعمال المزارع الحكومية من زرع أو غرس نبتة واحدة، تجمع الناس في المساجد وقرروا اقامة صلاة الاستسقاء كل يوم جمعة وفي كل قمم الجبال العالية، لعل الله يستجيب لدعواتهم» (ص24).

هكذا كانت الثورة الجزائرية عنصرا مهيمنا في رواية «البطاقة السحرية» التي أكدت استمرارها، وأنها ارث يصعب التخلص منه، وكيف أن صراع الماضي يستمر في الحاضر والمستقبل عبر توريث الصراع للأجيال القادمة. كل ذلك عبر لغة سردية متوترة تقوم على الاستيهام والاستبطان، والاحتفاء بالحكي الذي يضيء الأحداث والشخصيات.

---

* باحث في السرد العربي

الاحالات

1ـ عبد الحميد عقار، الرواية المغاربية تحولات اللغة والخطاب، منشورات المدارس، الدار البيضاء، 2000، ص,23,

2ـ عمر مخلوف، الرواية والتحولات في الجزائر، دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص,19,

3ـ نفسه، ص,14,

4ـ عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى، هموم وآفاق الرواية العربية، لعبد الرحمن منيف، بيروت، دار الفكر الجديد، 1992، ص,43,

5ـ محمد ساري، «البطاقة السحرية»، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.

6ـ الطاهر وطار، الحوات والقصر، دار البعث للطباعة والنشر الطبعة الأولى قسنطينة الجزائر.

7ـ عمر مخلوف، م. م، ص,24,

سعود قبيلات الماشي منذ 1955 قراءة مغايرة ومتأخرة

وليد الشيخ*

■ كأنك تدخل الحكاية من نافذة قصية.

ليس باباً ما يفتحه أمامك سعود قبيلات كي تدخل عالم المشي، انها التفاف على الحياة، محاولة «مشبوهة» في عرف الذين اعتادوا ركوب السيارات كي يرتكبوا حماقات تؤدي الى حوادث سير لا يحمد عقباها.

ومن قال ان خراب الحافلة تلك، كان صدفة، أو محض وهم راود الرجل الماشي، ولا أدري للآن ان كان سعود نفسه يتحمل جزءاً من مسؤولية خراب الحافلة أم لا؟

بالنسبة لي، كقارئ رأيت أن مسؤولية جنائية تقع على عاتق الرجل، فهو مشاء بجدارة، وما ركوبه الحافلة الا محاولة لتعطيل المواصلات والاتصالات وما شابه من وسائط النقل (وقد يكون هدف سعود المستقبلي تعطيل شبكة الانترنت)، ولا ندري كيف يترك بحرية رجل تثير نصوصه أعلى درجات التوتر وترفع منسوب الأسى حتى تفيض على ضفاف الروح، دون أن يتحفظ عليه أولو الأمر أو الأهل أو الجيران أو حتى المارة الذين يؤرقهم بمروره المتعالي، كأنه لا يرى أحداً.

وربما صعد الحافلة لهدف آخر، أكثر ايجابية مما قد يبدو في القراءات التشكيكية، كأن تكون الحافلة حزبا شيوعيا تعطلت بعامل الزمن واهترأت اطاراته من وعورة الطريق والمطبات ومزاجية السائق وثقته.

يلازمك التوتر أثناء المشي معه، ثمة منعطفات تحرمك من نعمة الاستكانة والتنفس، ومع كل خطوة اضافية لا بد وأن تنظر الى ساعتك، المؤشر المتفق عليه عملياً لحساب الزمن. و«العمر حين يوغل في الزمن يفقد القدرة على الدهشة»، هذا ما كتبه مؤنس الرزاز في تقديمه لمشي، لكن سعود قبيلات يبني كل عوالمه القصصية في محاولة لابقاء دهشته على حالها، يريد أن يوقف هذا التدفق المر للزمن، أو في المقابل يريد أن يحافظ على براءته وصدقه ودهشته، وهذا بالطبع لن يكون.

وهو يدرك ذلك جيداً وهنا تتحول أمنياته الى حسرة مريرة.

يبدو أن مهمات جسام كان الرجل يسعى لأجلها، وحينها خذلته الأداة (الحافلة)، وخذله الزمن (عمره الذي يمر)، وقلبه الخائن، القطعة اللحمية التي اتفق القوم على أنها البوصلة التي تشير الى الحب، الذي لم يتعرف على امرأته بعد الغياب، بين امرأة غامضة ومشتهاة، وراحلة ربما، وبين امرأة تنتظر عودته بصبر أزلي. امرأة تقف عند حدود اشارته. لكني لا أعرف إن كانت هي نفسها من «خلعت حذاءها ورمت به الفراشة، فسحقتها»!

المشكلة المفترضة الآن، عن ماذا سيكتب بعد سعود قبيلات؟

فكرت أيضاً أن ليس من حافلة أخرى، بعد تلك الكتابة، سيحظى بركوبها، وأن أرصفة كثيرة استقالت من دورها في استقبال المشاة، واعتزلت أقدامهم، وأن نساء كثيرات سيصيبهن الضجر والوسواس من رجل يحاول ترميم الحياة، فيبدل الأيام، ويستحضر المقثاة ولا يقر بأن جده استراح الى الأبد، يقوم بكل ذلك بصوت خافت، وبحيادية أحياناً كثيرة.

أهذا هو الاغتراب؟

الاحساس المفزع بعدم الثبات أو التأكد من أي شيء، من اللايقين السلبي في ما تريده الذات وما تسعى له، في تحديد الصواب والخطأ في شراء مادة ما أو غيرها من السوبرماركت.

لكن أن يصل الأمر الى المحاولة المستميتة التي يسعى لها سعود للقاء شخصه، للتعرف عليه، لمصالحته أو محاسبته على السنوات التي فرت والحنين الذي ما يزال يرفرف في أطراف ثيابه، في الاحساس بالقهر حتى التحول الى تمثال يشهد الحياة ولا يعيشها، هنا تصبح تلك اللعبة اللغوية التي يأخذنا اليها سعود مهمة شاقة ومؤلمة.

لا يجد قرينه الا خارج الدائرة الاجتماعية، عندما يعم الخواء أو عندما يلغي الآخر، عندما يصل الى ذروة الضجر «في النهاية هدني التعب، فعدت الى شقتي، وارتميت على فراشي، ورحت أعوي مثل ذئب وحيد في الفلاة»، وليس من سبيل الى الخلاص سوى الانتحار أو التشظي «ومرت الأيام والشهور والسنوات الطوال، ووجدتني أنقسم الى شخصين، صارا يمشيان معاً، ويعملان معاً، ويتسليان في أوقات الفراغ معاً».

وقد يبدو أثناء قراءتك لقصص سعود قبيلات، أنك أمام كاتب يتهكم عليك، ويرثي لحالك في آن واحد، كاتب يجد متعته في قض مضاجع الهادئين والباحثين عن السكينة وراحة الرأس، كاتب يدرك جيداً أن الركون لبرهة واحدة هو استسلام نهائي لوحش الوقت الهادر في أجسادنا»، وعندئذ.. عندئذ، فقط، أدركت، فزعاً، أن رنين الساعة الملحاح لم يكن، قط، في مكان آخر سوى جسدي!».

---

* شاعر من فلسطين

تكريم يمني لحجازي وتقييم «السرد النسوي» عند اليمنيات في الرواية والقصة

صنعاء ـ «القدس العربي»:

كرمت الهيئة العامة للكتاب في اليمن الشاعر العربي أحمد عبد المعطي حجازي، الذي حضر الفعاليات الأدبية والثقافية المصاحبة لمعرض صنعاء الدولي الـ23 للكتاب، الذي بدأ في الثاني من الشهر الجاري وينتهي في 12 منه.

وشهدت فعاليات معرض صنعاء للكتاب انعقاد ندوة حول السرد النسوي في اليمن أحياها الدكتور العراقي صبري مسلم وأدارتها الدكتورة العراقية أيضا وجدان الصائغ.

ورصد الدكتور مسلم في محاضرته مشهد السرد النسوي في اليمن بعرض عدد من التجارب الأدبية النسوية التي قال «انها عبرت بسجيتها عن طبيعة اسلوب المرأة اليمنية في معالجة قضاياها والتي يشترك معها الرجل».

واستعرض تجارب الأديبات نبيلة الزبير، أروى عبده عثمان، هدى العطاس ونادية الكوكباني وخصائص كل تجربة من تجارب المبدعات اليمنيات، اللواتي نجحن في طرح قضايا المجتمع من منظور قال انه استطاع أن يؤكد وجود المرأة اليمنية في المشاركات الأدبية.

ولفت الى المشاركات الخارجية للقاصات اليمنيات وحصولهن على العديد من الجوائز التي أكدت وجود المرأة اليمنية على المشهد الثقافي العربي والدولي.

واشار الى المحتوى الثقافي اليمني والفلكلور الخصب الذي أنتج محتوى واسعا للابداع الذي صاغته يمانيات استحققن عن جدارة تراكمات الثقافة عبر أحد فنونها الأكثر دفئاً القصة والرواية. الى ذلك تناولت الدكتورة وجدان الصائغ في تقديمها للندوة واقع السرد الأدبي في اليمن وأكدت على امتلاك السرد الجديد تقنيات جديدة ظهرت مستوعبة في اطار المشهد الثقافي اليمني وذكرت بعض الأعمال اليمنية السردية.

وفي ذات الصعيد عرضت الروائية الشابة هند هيكل قراءة نقدية لرواية (حرب الخشب) التي قالت «انها رواية جادة تقود الى مناخات غريبة مثلها مثل صراعات طواحين الهواء التي عبرت عنها الروائية في مواجهة آفة الثأر القبلي.. التي ناقشت محنة الطفولة والشباب والمجتمع الذي يتمخض عن وأد الطفولة والشباب تحت مسمى ثقافة الدم».

وتوضح رواية (حرب الخشب) معادلا ترميزيا بين الكف رمز القتل أداة الثأر القبلي والكف أداة ورمز البناء. ملخصةً الرواية في تراجيديا الثأر واحتراقها في هجينه الذي يعد أحد أخطر الأمراض الاجتماعية في اليمن.

وعقّب الشاعر العربي أحمد عبد المعطي حجازي في مداخلته حول امكانية الحديث عن موضوعات تهم المرأة وأخرى تهم الرجل، وتساءل عما اذا كانت هناك لغة نسوية ولغة رجولية؟ أو تقنية نسوية وأخرى رجولية.

وأشار الى أن فن القصة مرتبط بطور من أطوار التقدم الاجتماعي والثقافي الذي يحتاج الى بحث كبير لتفنيد قراءاته.

قص

دستور يا سيدي الشيخ علي

رشاد أبوشاور

■ سيدي الشيخ علي مديد القامة، يمشي بتؤدة، وعيناه تنظران بعيداً، في ظهره انحناءة طفيفة، عصاه على كتفه وقد علق فيها (بقجة) ملابسه (ثوب أبيض، وسجادة صلاة عتيقة، وسواك، وبعض البخور).

من عادته أنه يحني جسده قليلاً، ويمر براحة يده على رؤوسنا نحن الصغار، وهو يتمتم بآيات من الذكر، أو الأدعية، يبارك أعمارنا، ويرجو من الله لنا التوفيق والهداية، وحسن الطالع.

أخبرتني خالتي (فضة) أن الشيخ علي اعتاد زيارة قريتنا (ذكرين) قبل اللجوء، وأنه سعى لمعرفة إقامتنا بعد نكبة عام 48، وبعد تعب اهتدى لمعرفة عناوين أهل قريتنا فأخذ يزورنا في مخيماتنا، فنحن، كما تقول خالتي : تفرقنا يا حسرتني، وكأننا أهل يوم القيامة، فبعضنا في مخيم (النويعمة)، وبعضنا في مخيم (الدهيشة)، وبعضنا في مخيم (الفوار) وبعضنا في مخيم (عين السلطان) وهو المجاور لمخيمنا (النويعمة) ...

هو يأتينا بأخبار أقاربنا، وجيراننا الذين يزورهم في كل عام، فهو يقسم عامه على زيارات للجميع والاطمئنان على أحوالهم. يكتب الأدوية الشافية لمرضاهم، وينصح النسوة بالتقى، ورعاية الأبناء والبنات والأزواج، وقد يكتب (حجاباً) لإحداهن ليحبها زوجها، ولأخرى لتنجب إن شاء الله، ولكنه يأبى أن يكتب ما يفرق، أو يثير الغيرة والحسد، أو يوقع الأذى. ينصح دائماً بالابتعاد عن الحسد، والكيد، والنفث في العقد (من شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد).

كان ينظر إلي بشيء من الحزن، ثم يمسد على رأسي ويدعو الله أن يحميني، فهو يعرف أنني إبن (زينب) التي ماتت في (بابور الطحين) ،ودفنت هناك في قريتنا ،وبجوارها أختي الصغيرة (معزوزة) التي لحقت بها بعد شهرين...

جرؤت مرة، وقد رأيته يضع عصاه على كتفه، ثم يمشي ببطء مبتعداً، بعد أن ودع جمهرة النساء ـ الرجال يسرحون مع الفجر ويعودون مع غياب الشمس، بعضهم يشتغل في مزارع الموز، في منطقة (العوجا) على طريق نابلس ،أو مشروع (العلمي) شرقاً باتجاه الجسر قرب نهر الأردن ـ على مناداته بلهفة :

ـ سيدي الشيخ علي انتظر. ..

توقف في ظل دار (أبو غيث) الصرفندي، فالطقس حار والشمس تشوي الرأس، حتى وإن كانت على رأس الشيخ علي عمامة.

اقتربت منه، وقلت له وأنا أرتجف :

ـ سيدي الشيخ علي، أنا باحب البنت (...) وبدي منك تعمل لي حجاب علشان تصير تحبني. ..

سألني وقد وضع راحته الكبيرة فوق رأسي :

ـ أنت ابن المرحومة زينب ! البنت ما بتحبك؟

ـ بعرفش، أنا باستحي أسألها !

ـ خلينا نحسب حروف اسمك واسم أمك، ونشوف برجك. ..

أخذ يحسب الحرف، ثم تنهد ونطق بسر البرج :

ـ برجك (ناري)، يعني لازم يكون برج البنت (ترابي) أحسن بعدين تحرقوا بعض. ..فاهم ؟ إذا برجك ناري وهي برجها ناري مثلك بتحرقو بعض.. روح إعرف لي اسم أمها، وبعدين السنة الجاية لما أزوركم تخبرني به، فإن كان برجها ترابي نفعل ما يقدرنا الله عليه، لأنها ستكون مناسبة لك. ..

مشى الشيخ علي بخطوات قصيرة ثقيلة، وتوارى في منعطف الشارع، أما أنا فلبثت حائراً، أفكر في كيفية معرفة اسم والدة (...) شقيقة زميلي وصديقي (هاني) في المدرسة ، وفي نفس الصف، حتى أننا نجلس دائماً متجاورين على نفس المقعد.

لم يعد الشيخ علي في العام التالي إلى مخيمنا، ولم نعرف ما جرى له، فنحن تشتتنا، ورحلنا عن مخيمنا، فمنا من أقام في مخيمات عمان، ومنا من رحل إلى مخيم البقعة، ومنا من لا ندري أين انتهت رحلة تشرده. ..

ظلت (...) في بالي كل هذه السنوات، حتى بعد زواجي، وإقامتي في بيروت ،ودمشق، وتونس، والعودة إلى عمان بعد غربة عشرين عاماً.

وأنا أهبط السلم الكهربائي في (السيف وي)، رأيتها، إنها هي، والله هي !

أردد في سري هي، وقلبي يخفق بقوة، وارتجاف، ووهن، وفرح، ولخبطة، ورغبة أن أندفع وأحملها بين يدي وأدور بها صائحاً: والله العظيم هي، بعد كل هذه السنوات، هي والله العظيم، هي بلونها، بوجهها، بنظرتها التي اخترقت قلبي وجعلت روحي ترفرف كالعصفور، هي التي ضربت. .ماذا أقول ؟!. .ضربتني، صعقتني. .بنظرة حب من لما كنت في أول المرحلة الإعدادية، وحتى السنة الدراسية الأخيرة سنة التوجيهي...

ثلاث سنوات من الحب الصامت، من وله بها، من نظرات قلبي وعيني وروحي اللهفى، من استغاثات بأن تبتسم لي وتقول لي كلمة واحدة تجعلني أطمئن وأهدأ، ويسكن قلقي...

أقترب، لا كما عهدتني متردداً، وأهمس باسمها، فتتراجع خطوتين وتبتسم، ثم تضحك، وتضرب كفاً بكف :

ـ أنت !..ياااه.. بعد كل هالعمر!

وقفت ذاهلاً أتأمل وجهها.

ـ لم تتغير كثيراً، شوية شيب على الصدغين، و..

أين كنت، هل تزوجت، لماذا لم تسأل عن، عن. .أخي صاحبك و.. ؟!.

وبدون وعي أسألها :

ـ ما اسم أمك ؟

تضحك بصوت عال دون اهتمام بالناس المتسوقين. ..

ـ لماذا تسأل عن اسم أمي ؟!

ـ لأن الشيخ علي. ..

ـ الشيخ علي، أي شيخ علي ؟!

ـ الشيخ علي طلب مني أن أعرف اسم أمك !

ـ اسم أمي. ..

ـ تلك حكاية قديمة. .تصوري لقد تعلمت من كتاب (أبو معشر الفلكي) أن أعرف أبراج المحبين و..

ـ أنت !

ـ أنا. ..

ـ قرأت لك مقالات، وقصصاً، ورأيتك مرة على التلفزيون، وسمعت أخبارك و...

ـ ولكن: ما اسم أمك فعلاً ؟

ـ نعمة. ..

ـ ياه، لقد خجلت أن اسأل شقيقك صاحبي عن اسم أمه، والشيخ علي لم يعد في السنة التالية، لقد وقعت حرب 5 حزيران و..تفرقنا...

حسبت أرقام اسم أمها بسرعة، ووجدتني أتمتم :

ـ برجك ترابي، يعني لو لم تقع حرب (حزيران)، ولو عاد الشيخ علي، حتى لو لم يعد، لكنا، أقصد كنت لا أجرؤ أن أقول لك بأنني، ولكن لو لم يفرقنا (حزيران) لكنت تشجعت وقلت لك بأنني. ..

ـ بأنك ماذا ؟!

ـ بأنني كنت. ..

ـ كنت؟!

ـ وما زلت، وسأظل. .

التفتت حواليها، ثم لفت جسدها وكما لو أنها تقوم بنفس الحركة عندما كانت تخرج من بوابة مدرسة البنات لتبحث عني بعينين تمسحان زوايا الشارعين المتقاطعين أمام المدرسة، وأشارت بيدها لأحدهم، فبادر للاقتراب منا شاب مديد القامة، عرفتني به:

ـ إبني . ..

ذكرت اسمه المطابق لاسمي، فمد يده، فهمست له باسمي بحيث لا يتبينه تماماً، هو غير المعني بهذا (العم) الذي ظهر فجأة :

ـ الأستاذ.. من مخيمنا، صديق خالك، وجارنا أيام مخيم (النويعمة)، مخيمنا الذي حكيت لك عنه، القريب من أريحا..ما أحلاها تلك الأيام، أيام (النويعمة) و(أريحا) ! كنا نعيش على الأمل، لكنها راحت...

قال بلامبالاة:

ـ تشرفنا. .

وإذ ابتعد الشاب متشاغلاً بتناول حاجيات عن الأرفف، شعرت بأن ناراً تندلع في جوفي، في رأسي، في يدي، في ساقي، في شراييني. ..

أيقظني صوتها القلق:

ـ أتشكو من شيء ؟

ـ الشيخ علي أخبرني أن برجي ناري، وأنني بحاجة لمن برجها (ترابي) ...

لما عاد ابنها، ومدت يدها تودعني، شدت على يدي وكأنها تعد بأننا سنلتقي. ..

رأيتها تخرج من الباب إلى الشارع لتختفي مع ابنها في سيارتهم الخاصة، ثم لتحين منها نظرة، نظرة من نظرات أيام زمان، أيام خروجها من بوابة المدرسة، نظرة انتظرتها بلهفة خمسة وعشرين سنة. ..

وإذ توارت السيارة، وغابت الابتسامة، داخلني شعور بأنني توهمت كل الذي جرى. ..

انزلق جسدي بجور الجدار، وتكومت على نفسي وداخلني شعور بأنني أتحول إلى كيس من الرماد بعد سنوات من الشوق والاحتراق. ..

آخ يا سيدي الشيخ علي، أكان لا بد أن يدهمنا 5 حزيران ليبددنا ؟!...